



# الأديب و المُفكّر الرَّاحِل رَمَضانَ عَبدِ الرَّحْمَنِ لَأَوند

## ﴿ سَيِّدُ المَنابِر ﴾

- ظاهرة التكيف أو التمرد على الذات تتحقق بعد سبعين عاماً من المكابرة وتعذيب الذات .
- فيديل كاسترو والصين الشعبية يرفضان التعامل مع ألبير يسترويكا والغلاسنوست .
- العالم الغربي يتعامل مع الصين بصورة طبيعية رغم محافظتها الشديدة .
- صور من حياة الكوبيين في ظل نظام كاسترو .

## الحلقة الرابعة

ليست هي المرة الأولى التي يحاول فيها بعض الناس الهروب إلى الأمام حين يجدون أنفسهم أمام حقائق ووقائع لا سبيل إلى تجاهلها . فالتكيف للمستجدات أمر يحتاج إلى الكثير من الوعي والإرادة ولنا في قصة النظام الشيوعي منذ عام 1917 م من هذا القرن حتى النصف الثاني من العقد الثامن من القرن نفسه الآية والعلامة . إنها قصة لينين الذي وضعه الشيوعيون في خانة مؤسس الماركسية ثم جاء بعده ستالين الذي قيل أنه فرض نفسه على دولة النظام الشيوعي رغم سلبية لينين وخوفه من انتقال مقدرات الدولة إليه .

وستالين هو الحاكم الدموي الذي فرض أسطورة المجتمع السعيد الذي يرتفع فوق قواعد الشيوعية الأممية وهو الذي جعل من نفسه الأب الرفيق الشفيق بشعوب الإتحاد السوفياتي في الوقت الذي كانت فيه ضحايا أبوته الرفيقة الشفيعة تتساقط بين يديه بدعوى الانحراف أو الخيانة .. والحقيقة أن الرؤوس المتساقطة كانت رؤوس رجال استمروا يحتفظون ببقية من الاحساس بالكرامة والرجولة أو من مشاعر العدالة والمسؤولية .

ومات ستالين وانكشفت الخفايا وعرف العالم حقيقة الفضائح التي كانت تزكم النفوس وشجبت ذكرى هذا الرجل وأدين بصورة رسمية ودمرت تماثيله . لكن القيادات السوفياتية التي ورثت سلطانه لم تجرؤ على الاعتراف بالحقيقة التي تقرر أن شخص ستالين لم يكن غير إفراز من إفرازات الفكر الماركسي والنظام الذي جسده هذا الفكر .

لقد احتاجت هذه القيادات الى اللجوء إلى الكثير من المكابرة والاستمرار في تغذية الشعارات المموهة لحقيقة ما يجري في الداخل . واستطاعت هذه القيادات أن تزين للكثير من الشعوب المغلوبة على أمرها بأن المستقبل هو لصالح المنادين بالماركسية الأممية . حتى إذا لم تعد سبيل إلى اخفاء التناقضات الفاضحة والقائمة بين الشعارات والوقائع ، واختنق الإقتصاد السوفياتي وأصبحت الدولة منه على شفا جرف هاو ، ظهرت القيادة التي وجدت نفسها أمام خيارين لا ثالث لهما .

1 ) أن تبقى شاهدة على اقتراب النظام من الهاوية والسقوط فيها مع الساقطين .

2 ) أن تقرر التكيف للمستجدات وتتنازل عن امتيازاتها وتوافق على انفصال المستعمرات الملحقة بامبراطوريتها من أوروبا الشرقية وأخيراً أن تقرر طرح مبدأين جديدين ينتقض بها بناء الأسس التي قام عليها النظام .

\*\*\*\*\*

وكان الخيار الثاني هو الذي لجأت إليه لا لأن الرئيس ميخائيل غورباتشيف هو الذي اختار هذا الاتجاه بل لأن رجال النظام وجدوا من الضروري القيام بهذا التكيف حفاظاً على النظام مقابل خسارتهم لبعض الامتيازات التي كان يتمتعون بها .

وقد رمز إلى هذا التكيف بشعارين : البيريسترويكا أو إعادة البناء ، والغلاسنوست أو المصارحة . أما إعادة البناء فتعني إسقاط المسلمات الأساسية في النظام التقليدي . وأما المصارحة فتعني منح الشعوب السوفياتية حق المناقشة والاعتراف .

\*\*\*\*\*

فالرئيس غورباتشيف لم يجد باسم القيادة الشيوعية أي حرج في شطب أسس النظام التقليدي والتنكر لقيمه وشعاراته كما أنه لم يتردد في التنازل عن العلاقات الفوقية التي كانت تربط دول أوروبا الشرقية بامبراطوريته . وإذا كان هناك ما يحمى الرئيس السوفياتي عليه فهو أنه سجل بإسمه وباسم القادة السوفيات الاعتراف بفشل آباء النظام في تجسيد الطوبويات التي طالما رددتها أبواقهم الإعلامية على امتداد سبعين عاماً .

\*\*\*\*\*

ونحن هنا لا نحاول أن نحكم القيادة السوفياتية الحالية . فقد قلنا وقال غيرنا الكثير عن الشروخ التي برزت في بنية النظام الشيوعي . ولعل ما قاله القادة السوفيات أنفسهم أن يكون أقوى تعبير عن إفلاس الأهمية والملكيات المؤممة والاقتصاد الموجه . وهذه الحقائق لا يخفيها ما ردهه ويردده رجال النظام اليوم من أن البيريسترويكا والغلاسنوست سيتحققان في إطار الحفاظ على الاشتراكية .

\*\*\*\*\*

ومن الطبيعي أن تحتفي أصوات القيادات الخارجية التي ربطت نظمها لسنوات طويلة بالنظام السوفياتي أو على الأقل أن تتضاءل هذه الأصوات شيئاً فشيئاً ، باستثناء صوتين أحدهما في أقصى الشرق وثنائهما في أقصى الغرب .

أما في أقصى الشرق فهناك الصين الشعبية التي ركبت قيادتها رأسها وأصرت على تجاهل الضرورات السياسية والاقتصادية التي فرضتها طبيعة الأشياء . وكانت المذبحة التي جرت في ساحة تياتنمي في بكين والتي سقط من جرائها الألوف من الجامعيين الشباب ثمناً للسياسة الصينية المحافظة . وهناك ألف شاهد وشاهد على أن هذه

المذبحة قد أجلت يوم الانتفاضة ولم تقض على أسبابها الكامنة . وقد علمنا التاريخ أن الوقوف ضد تياره وتجاهل ضروراته تضاعف من ضغوطه وتغذي طاقة التفجير في طياته .

والثابت أن المعسكر الغربي الذي يتعامل مع دول العالم لا يضع في حسابه القيم التي ترددها شعاراته بل يضع حقيقة وحيدة هي موازين القوة وضغوط المصالح وحسب .

\*\*\*\*\*

قد مكنت هذا البلد الكبير من الصمود أمام المتغيرات السياسية والاقتصادية في المعسكر الشيوعي فإن حجم فيديل كاسترو والدولة التي يتصرف بمقدراتها لا يسمحان له بركوب رأسه في تقدير كثير من المراقبين . ودراستنا لما يجري داخل جزيرته تساعدنا على تقييم السياسة التي يلتزم لها يصر على الاحتفاظ بها . والتحقيقات التي أجريت في بلاده بعيداً عن رقابته تساعدنا على وضع صورة واقعية للظروف والأحوال الاجتماعية والاقتصادية التي تشيع في بلاده .

\*\*\*\*\*

إن أحداً لا يستطيع أن ينكر بأن رياح البيريسترويكا التي تهب من كل حذب وصبوب في البلدان الاشتراكية لم تستطع أن تخفي حقيقة واقعة هي أن كوبا لا تزال حريصة على الالتزام بالنظام الشيوعي المحافظ . ففيديل كاسترو يؤكد بأن التغييرات التي حدثت في بلدان الشرق هي خيانة حقيقية فاضحة . والواقع أيضاً أنه في الوقت الذي يتزايد فيه التقارب بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي فإن نظام فيديل كاسترو يزداد عزلة عما يجري في الخارج .

ومن الطبيعي أن يفقد الزعيم الكوبي مساندة شعبه له أو فئة كبيرة من شعبه على الأقل . ولكي يحافظ على سلطته فإنه كما يبدو الآن راح يضاعف نشاطه الإعلامي الذي يوحى لشعبه بأن غزواً أميركياً لبلاده أصبح وشيكاً . وخلاصة القضية التي يردد الحديث عنها تتبدى في شعاره الأساسي : " الاشتراكية أو الموت " ..

\*\*\*\*\*

ماذا يقول شاهد عيان عما يجري داخل كوبا ولا سيما العاصمة هافانا ؟

" دوي طلقات المدافع المضادة للطائرات يتردد بين مباني جادة ماليكون التي تساحل مياه البحر . واللهب الأصفر الذي ينبجس من أنابيب المدفع الأربعة تثير الفتيان الكوبيين الذين يتحلقون حول بطارية المدفعية المصنوعة في الاتحاد السوفياتي .

وهناك فتاة جالسة على مقعد الرامي تغلق عينها كلما انطلقت القذائف من الأنابيب الأربعة . أما الفتیان الذين يقفون حولها فإنهم يرددون قائلين صارخين : تابعي اطلاق النار .. وليسقط البانكي " الأميركيون " .. الثورة أو الموت . وإلى جانب بطارية المدفعية يقوم رجل بلباس الجندي بتوزيع الكلاشينكوف على عدد من الفتیان والفتيات الذين تستفزهم الحماسة .

وقد ظهرت على الشاطئ ثلاث بطاريات مدفعية يتولى الفتیان والفتيات اطلاق النار في الوقت الذي تبرز فيه فوق مياه البحر ثلاث سفن قديمة تصوب نحوها قذائف المدافع . وتتعاقب مراحل التدريب حين يعلن أحد الضباط بأن رجال البانكي بدأوا يقتربون من مياه الشاطئ ويطلب من الفتیان والفتيات القيام بهجوم مضاد .

\*\*\*\*\*

هذه الظاهرة تتكرر في العاصمة هافانا مرتين أو ثلاث مرات في كل أسبوع . كما يشاهدها السائح في مناطق متعددة من الجزيرة حيث يحتمل أن ينزل الغزاة الأميركيون .

\*\*\*\*\*

والحقيقة أن من يذهب اليوم إلى كوبا لا بد وأن يكتشف عالماً جديداً منطوياً على نفسه بدعوى أن غزواً أميركياً للجزيرة أصبح وشيكاً كما تردد أجهزة الاعلام الكوبية . وهكذا يتعرض الشعب الكوبي في كل يوم لهذا النوع من الإثارة . والمقصود من هذه التوجيهات اليومية هم شباب البلاد التي تبين أن نسبة من هم دون الثلاثين من العمر تبلغ 58 في المائة من مجموع السكان .

\*\*\*\*\*

يقول فيديل كاسترو : " إن ما نحتاج إليه ونتمناه هو تطوير وتحسين الاشتراكية لا القضاء عليها . وهذا ما يحدث فعلاً " ..

وفي رأيه أن بولونيا وتشيكوسلوفاكيا وهنغاريا وبلغاريا قد خانت كوبا بطريقة مقززة للنفس حين اقترع مندوبوها لصالح مشروع القرار الأميركي الذي يشجب نظام كوبا أمام لجنة حقوق الانسان التابعة لمنظمة الأمم المتحدة والمنعقدة في جنيف . هذه الخيانة هي قذارة مقرفة في نظر كاسترو الذي يقول أيضاً : " إننا دون شعب موحد ومنظم ومسلح للدفاع عن الثورة ، لا نستطيع أن نجابه الولايات المتحدة " ..

\*\*\*\*\*

والواقع أن النظام الكوبي إذ يصور العدوان الأميركي على أنه أمر حادث في مستقبل قريب أو بعيد فإنه يغذي في النفوس العصبية الوطنية . وهو يفعل ذلك في محاولة منه للفت أنظار الكوبيين الذين يواجهون المزيد من الصعوبات في الحصول على الضرورات المعيشية يوماً بعد يوم .

إن عبارة " غير موجود " هي التي تتكرر في الغالب على ألسنة البائعين أمام الزبائن في المطاعم أو في المحلات التجارية ما لم يكن هؤلاء مستعدين لدفع الثمن بالدولار الأميركي " عملة الشيطان " ومع ذلك فالناس في كوبا يتهافتون للحصول على هذه العملة .

وبسبب من انتفاء مبدأ البيروسترويكا في تلك الجزيرة فإن السياحة هي وحدها المصدر الكبير للعملة الأميركية . والحقيقة أن نظام كاسترو يعتمد اعتماداً رئيسياً على ما يجمه السواح الأجانب إلى بلاده ممن يحبون تعريض أجسامهم لأشعة الشمس .

وعدد هؤلاء السواح كما تقول الأنباء الرسمية يبلغ 200 ألف أكثرهم من الكنديين والأوروبيين . ومن المنتظر أن يبلغ عدد القادمين عام 1992 نصف مليون ثم يرتفع الرقم إلى مليون عام 2000 م إذا سارت الأمور سيرها الطبيعي .

والجدير بالذكر أن الذين يأتون إلى الجزيرة لا يعود أكثرهم بعد ذلك إليها . ومما يلفت النظر أن أكثر الفنادق السياحية في البلاد قد بنيت في أعوام الخمسينات . وقد بنى الأميركيون منها في هافانا . فندق هافانا الحر " هيلتون سابقاً " أو الريفيرا . ومنذ الخمسينات لم يتغير شيء أو يكاد . أما المصاعد فتعمل حينما يجلو لها ذلك ، والأثاثات قد بدت عليها معالم التعب والإرهاق .. حتى الصنابير تتحدث صخباً حين تجري فيها المياه . أما الخدمات في المؤسسات السياحية فهي تذكر بمثلها في دول أوروبا الشرقية رغم ما عرف عن الكوبيين من السماحة وحسن المعاملة .

والجدير بالذكر أن العاملين فيها يبذلون جهدهم في تقديم الخدمات المطلوبة لكن الإدارات في الفنادق تضع الكثير من العراقيل والتعقيدات في غير نهاية .

ولا غرابة في ذلك فالنادل الذي يعمل في فندق من الفنادق لا يتمتع أبداً أن يرى سائحاً ينفق في الوجبة الواحدة من الدولارات ما لا يحصل عليه في الشهر كله . يضاف إلى ما سبق حرص السلطات على الخيلولة دون أي اتصال بين الكوبيين والأجانب . وقد حدث فعلاً أن زوجين من باريس أخذتا يتبادلان الحديث مع شخصين كوبيين ممن يعرفون اللغة الفرنسية . فكان الاعتقال هو نصيب هذين الأخيرين . وعندما تدخل

المواطنان الباريسيان لإثبات براءة الرجلين طلب إليهما بكل جفاء عدم التدخل فيما لا يعنيهما . يضاف إلى ما سبق أن السجن هو عقوبة كل كويتي يحصل على دولارات أميركية . ومع ذلك فإنه لا جينز ولا صابون ولا دواليب سيارات دون دولارات . ويروي المراسل الصحفي باتريك فورستيا أن مجهولاً أخذ حذاءيه بينما كان يستحم في مياه البحر . فمثل هذه السلع ينذر وجودها في المحلات التجارية . الأحذية الوطنية هي وحدها التي يصل عليها الناس بموديل وحيد ومقاسات محددة .

\*\*\*\*\*

ومما يلفت النظر أن هافانا في حاجة ماسة إلى مائتي ألف منزل لحل مشكلتها السكنية . والخلاصة أن كل شيء تغير عما كان عليه قبل كاسترو . وكل شيء يبدو وكأن الدنيا في كوبا قد توقفت عن المسير عام 1959م . أما السيارات فإن موديلاتها تعود إلى أعوام الخمسينات باستثناء سيارات لادا وسيارات الجيب صنع الاتحاد السوفياتي التي تملكها الدوائر الرسمية .

وهافانا مدينة عابسة تخلو من المحلات التجارية الصغيرة ومن تجارة البرتقال والحامض مع العلم أن كوبا بلاد متخصصة في إنتاج الحمضيات . وفي المساء تخلو الشوارع من المارة تقريباً .

وقد لاحظ باتريك فورستيا المراسل الصحفي لمجلة باري ماتش أن سيارات الثلج لا تكاد تقف في الشارع حتى يزدحم الناس حولها للحصول على قطعة من الثلج . والناس يقفون صفوفاً طويلة للحصول على حاجتهم من الخبز أمام المخازن التي تخلو من سلعتها دون أن يحصل الجميع على حاجتهم منها .

أما الأدوية فأكثرها مصنوع من الأعشاب . والشأن نفسه في محلات الجزارة . ولا يحصل المواطن على حصته من اللحم إلا بصعوبة مع العلم أنه لا يفوز إلا بثلاثة أرباع الكيلو غرام في كل شهر .

ولا ننسى أن بيع الدجاج مقنن وكذلك الأرز والفاصوليا السوداء منذ العام 1961 م . والخلاصة أن الكوبيين يعيشون بفضل بطاقات التموين التي قيل لهم في بداية الستينات أنها وقتية فأصبحت دائمة .

وخلاصة القول أن الاشتراكية العلمية وتأميم الأراضي قد أحدثا من الأضرار ما يشبه تلك التي ظهرت في بولونيا وفي الاتحاد السوفياتي .

\*\*\*\*\*

يبقى أن نتساءل عن طبيعة العلاقات بين كوبا والإتحاد السوفياتي بعد أن تمرد فيديل كاسترو على الولايات المتحدة رمز الاستعمار وعنوان العدوان على الشعوب ! هل صحيح أن كوبا قد تذوقت طعم الحرية حقاً حين ربطت مصيرها بالإتحاد السوفياتي ؟ هذا التساؤل يمكن أن نجيب عنه في حلقة قادمة إن شاء الله .